اللحظة الرومانسيّة في المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ

مهنّد مصطفى *

أشارت الكثير من الأبحاث إلى هامشيّة الفلسطينيّين في الداخل في خطاب الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، وخاصّة في مرحلة ما بعد النكبة الفلسطينيّة، حيث تبلورت الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة والمشروع الوطنيّ الفلسطينيّ وحتّى الهُويّة الوطنيّة الفلسطينيّة دون مشاركة وتأثير كبيرين للفلسطينيّين في إسرائيل. وظهرت قطيعة في التصوّرات السياسيّة والأدوات النضاليّة، وحتّى في مفهوم الهُويّة الوطنيّة، بين الفلسطينيّين في إسرائيل وسائر فئات الشعب الفلسطينيّ. بينما شهدت فترة ما بعد أوسلو وعيًا أكبر في صفوف التيّارات السياسيّة-الأيديولوجيّة لأهمّيّة دَوْرها في المشروع الوطنيّ كردّ فعل على تهميشها في المفاوضات، وتهميش قضاياها التي هي جزء من القضيّة الفلسطينيّة، كما أنتجت فترةُ ما بعد أوسلو خطابَ الدولة اليهوديّة، كخطاب سياسيّ نضاليّ يتجاوز الكتابات الأكاديميّة النظريّة حول النظُم السياسيّة، إلى خطاب يضع جوهر الدولة كمتغيّر مركزيّ في تحديد مكانة فلسطينيّي الداخل القوميّة والمدنيّة. إذًا، أنتجت فترة ما بعد أوسلو مسارين يبدوان متناقضين للوهلة الأولى، إلّا أنّهما متكاملان في جوهرهما: ازدياد أهمّيّة تعزيز دور الفلسطينيّين في الداخل في المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ من جهة، وتعزيز خطاب المواطَنة والقوّة الكامنة فيها من جهة ثانية.

شهدَ العَقد الأخير تحوُّلين سياسيّين ساهَما في دفع النقاش حول مكانة فلسطينيّ الـ 48 وَدْورهم في المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ؛ الأوّل يتمثّل في تآكل المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ وغياب الإجماع حوله، بالتزامن مع وضوح المشروع الإسرائيليّ الصهيونيّ الكولونياليّ في فلسطين التاريخيّة، ويتمثّل هذا الأخير في ثلاثة أمور: أوّلها حضور مكثّف ليهوديّة الدولة، بما يتجاوز طابعها القوميّ الإثنيّ إلى طابع قوميّ دينيّ، في تعاملها مع ذاتها ومع فلسطينيّي الـ 48، ثانيها تعزيز السيطرة الكولونياليّة في مناطق الـ 67، وإفشال منهجيّ لحلّ الدولة الفلسطينيّة، وثالثها الحفاظ على تقسيم وانقسام الشعب الفلسطينيّ. نقول ذلك دون أن نغفل عن المسؤوليّة الوطنيّة الفلسطينيّة عن هذا الانقسام والتقسيم.

التحوّل الثاني هو مفارقة أعتبرها تاريخيّة، لكنّها محفوفة بالمخاطر، بسبب طابعها الدوغمائيّ الإطلاقيّ، لا بسبب أساسها الفكريّ السياسيّ والوطنيّ، وتتمثّل أو تتمظهر في انتقال الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، في تعاملها مع فلسطينيّي الـ 48 من التهميش حدَّ الإقصاء إلى الرومانسيّة، أي اعتبار مركز المشروع الوطنيّ كامنًا في تجربة فلسطينيّي الـ 48. وكلاهما يشكّلان قصورًا في الحركة الوطنيّة، فتهميش فلسطينيّي الـ 48 الذي وصل ذروته في اتّفاق أوسلو، اعتُبِر قصورًا في فهم دور فلسطينيّي الـ 48 ومكانتهم كجزء من الشعب الفلسطينيّ والقضيّة الفلسطينيّة، بينما تُعبّر النظرة الرومانسيّة (أو الرَّمْنَسة هذه) عن مأزق هذه الحركة في ظلّ الانقسام الداخليّ، وتبعثُر الشتات الفلسطينيّ وتآكُل المشروع الوطنيّ. تنطلق الرومانسيّة من اعتبار التجربة السياسيّة لفلسطينيّي الـ 48 تجربة يمكن محاكاتها للخروج

من المأزق الفلسطينيّ، وأقصد مأزق الانقسام وغياب الأفق السياسيّ والفصائليّة السلبيّة وغيرها. وتتعزّز هذه المفارقة على نحوٍ مثير عندما تتعامل الحركة الوطنيّة مع فلسطينيّي الداخل برومانسيّة، بينما تتعامل الحركة الوطنيّة في مناطق الـ 48 مع الحركة الوطنيّة العامّة ببرغماتيّة.

لم تظهر هذه الرومانسية من فراغ؛ فعلاوة على المأزق الداخليّ للحركة الوطنيّة، قدّم فلسطينيّو الداخل نموذجًا للعمل والنضال المشتركين في السنوات الأخيرة، كالنضال من أجل الدفاع عن المسجد الأقصى المبارك، والنضال في مواجهة مخطَّط مشروع برافر، والخطاب في نقض الدولة اليهوديّة (وهو خطاب طوّره التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ)، وإقامة القائمة المشتركة، وانتخاب رئيس لجنة المتابعة مؤخَّرًا، إضافة إلى مجْمل العمل السياسيّ الجماعيّ. وبدأت تظهر مؤخّرًا قراءات تاريخيّة في الساحة الفلسطينيّة تشدّد على الوطنيّ الفلسطينيّ وتُقْصي الجانب المُؤسرل في تاريخ فلسطينيّي الـ 48. وهي كذلك قراءة انتقائيّة أيديولوجيّة، كما كانت القراءة القديمة التي اعتبرت فلسطينيّي الداخل جزءًا من المجتمع الإسرائيليّ في أحسن الأحوال.

تنطلق هذه الرومانسية من المقولة التي ترى أنّ المشروع الوطنيّ الجماعيّ في مناطق الـ 48 وصل إلى حالة من الاكتمال أو التألّق السياسيّ والنضاليّ. ولكن هذا المشروع في الحقيقة ارتدّ إلى القواعد الأيديولوجيّة لكلّ تيّار، مُدشّنًا مشاريع وطنيّة متعدّدة تتجاوز المشروع الجامع، الذي تمثّل في البقاء والصمود، دون تغييبه بالطبع، بينما شكّلت المواطَنة -رغم كونها واحدًا من جملة عوامل يتميّز بها فلسطينيّو الـ 48 عن سائر فئات الشعب الفلسطينيّ- أحدَ العوامل في تنظيم العمل السياسيّ لديهم.

جاءت العودة إلى الأيديولوجيا وسلطانها نتيجة اصطدام المشروع السياسيّ الفلسطينيّ داخل الخطّ الأخضر مع صلابة الدولة اليهوديّة القوميّة الدينيّة، فالعودة إلى الأيديولوجيا شكّلت حالة من التعويض عن صلابة الواقع السياسيّ وقصور إمكانيّة تغييره في ظلّ موازين القوّة الحاليّة. ركّز الخطاب السياسيّ الفلسطينيّ في العَقدَيْن الماضيَيْن على مصارعة الدولة اليهوديّة بغية تفكيك طابعها، وشكّل هذا الخطاب نقلة نوعيّة في الخطاب السياسيّ العربيّ، وكشف على نحوٍ واضح التناقضَ القائم بين الدولة اليهوديّة والديمقراطيّة. والأهمّ أنّه كشف عن قصور حلّ الدولتين مع إبقاء الطابع اليهوديّ للدولة، كما أنّه زجّ بإسرائيل في مكان لا تُحسد عليه. لكن الدولة اليهوديّة، كردّ فعل، باتت أكثر صلابة في يهوديّتها، وفي المقابل وجدت الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة عمومًا نفسها أمام كولونياليّة إسرائيليّة ماضية وواثقة في احتلالها.

وإذا أردت أن أحدد اللحظة التاريخيّة الرسميّة (وهو تحديد مجرَّد لا ينفي التحوّلات قبل هذه اللحظة) التي وصل فيها المشروعان إلى جدار اليهوديّة الكولونياليّة الصُّلب، فهي لحظة عودة نتنياهو، نتنياهو المشروع، لا الشخص، حَدَثْ هذه اللحظة بالتيّارات السياسيّة الفلسطينيّة في الداخل إلى العودة إلى المربّعات الأيديولوجيّة الصُّلبة لها، قفزًا عن الواقع لا مواجَهةً له، على نحوٍ ما تجلّى الأمر منذ منتصف التسعينيّات. أعاد خطاب نتنياهو ومشروعه الصراع إلى عام 1948. وفي عام 1948، تلتقي كلّ فئات الشعب الفلسطينيّ كوحدة وطنيّة واحدة، قبل لجوئها وتشتُّتها وانقسامها؛ يعود الشعب الفلسطينيّ كتلة تاريخيّة واحدة في مواجهة المشروع الصهيونيّ. إنّها نقطة الصفر التي تمثّلت في وَحدة الفلسطينيّين قبل الانقسام الذي يفكّر الجميع من جديد في دَوْره في المشروع الوطنيّ.

تُعتبر حالة الرومانسيّة الفلسطينيّة، في التعاطي مع التجربة السياسيّة لفلسطينيّي الـ 48، جزءًا من سيرورة تاريخيّة بدأت مع انتقال مركز الثقل الوطنيّ والسياسيّ والنضاليّ من الشتات، قبل عام 1987، إلى الأراضي الفلسطينيّة التي

احتُلّت عام 1967 بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينيّة. ومرورًا باتّفاق أوسلو الذي ساهم في اختزال المشروع الوطنيّ في مجرّد إقامة دولة على هذه البقعة من الوطن الفلسطينيّ، وانتهاءً بانتقال مركز الثقل إلى مناطق الـ 48 بعد وصول هذا المشروع المتآكل إلى مأزق وطريق مسدود في السنوات الأخيرة. تمثّل هذه اللحظة الرومانسيّة لحظةً هامّة في إعادة الاعتبار لمكانة فلسطينيّي الـ 48 في المشروع الوطنيّ أو على الأقلّ في التعاطي الفلسطينيّ الإيجابيّ مع هذه الفئة من الشعب الفلسطينيّ، مع التأكيد أنّه لا يمكن قطع هذا الاهتمام عن التحوّلات التي حدثت في خطاب فلسطينيّي الـ48 ونضالهم في العَقدَيْن الماضيَيْن. وفي الوقت نفسه، تحمل هذه اللحظة الرومانسيّة خطورة؛ وذلك أنّها قد لا تدرك، في لهفة رومانسيّتها، السياقَ السياسيّ الذي يحدِّد خطاب وآليّات العمل السياسيّ والنضاليّ لفلسطينيّي الداخل، وسياقَ المواطنة الذي تفتقر له، إلّا إذا تبلور مشروع وطنيّ فلسطينيّ جامع يضع حلّ الدولة الواحدة الثنائيّة القوميّة في مركزه، عندها تكون هذه الرومانسية مرحلة، لا لحظة؛ مرحلة تاريخيّة فارقة للمشروع الوطنيّ ولمكانة فلسطينيّي الداخل ودَوْرهم في المشروع الوطنيّ.

*** د مهنّد مصطفى هو باحث في مدى الكرمل ومحرر مشارك ل "جدل".**